الصباح الإسلامية
09
العدد 2018 - السنة السابعة
الأثنين 2 صفر 1436 - الموافق 24 نوفمبر 2014
Monday 24 November 2014 - No.2018 - 7th Year

مواقف العلماء من قضية الإعجاز العلمي لكتاب الله (1)

المضيقون حرموا تفسير الإشارات الكونية في القرآن الكريم

موقف المضيقين هو الموقف الذي يرى اصحابه ان تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي-الذي لا يجوز- استنادا إلى أقوال منسوبة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- منها قوله الشريف: «من قال في القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ» و«من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» (2).

واستنادا إلى اقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما- من قول الأول: «أي سماء تظلني، وأي ارض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي؟» وقول الثاني: «اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه». وكذلك استنادا إلى قول كل من سعيد بن المسيب وعبدالله بن عمر - رضي الله عنه - في الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول في القرآن شيئا». وإلى الثاني: «لقد ادركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير». واستنادا كذلك إلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع - رضي الله عنه-: «اتقوا التفسير، فإنما الرواية عن الله».

ولقد فات اصحاب هذا الموقف ان المقصود بـ«الرأي» في الحديث هو «الهوى»، لا الرأى المنطقي المبني على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التي وردت في الحديث الثاني - هذا بغض النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضعاف السند-. كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يوحي بالتحرج من القول في القرآن الكريم بالرأي الاجتهادي، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب في الحديث عن كلام الله، خاصة أنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية، وفطنوا بها وبأسرارها، ودرجوا على عادات المجتمع العربي، وألموا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قرب وهو الموصول بالوحي، وسمعوه - صلى الله عليه وسلم - وهو يتلو القرآن الكريم ويفسره واستعانوا به على فهم ما وفقوا «ونه»، وأدركوا تفاصيل سنته الشريفة، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجال للاجتهاد بالرأي؟ خاصة أن العصر لم يكن عصر تقدم علمي كالذي نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبي عهد بالجاهلية التي كان قد خيم فيها على العالم أجمع ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير ولم يسلم من ذلك الركام أحد، حتى أصحاب الحضارات البائدة، خاصة كذلك ان العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول الكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى في دين الله أفواجا، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتي لم يكونوا قد تمكنوا من التخلص منها كلية بمجرد دخولهم في دين الله، وأن أعدادا غير قليلة من غلاة اليهود كانوا قد دخلوا الإسلام - كما دخل أسلافهم إلى دين عيسى بن مريم - ليائتمروا به ويتآمروا عليه ويكيدوا له بتأويل كلام الله على وجوه غير صحيحة من أجل تفتيت وحدة صف المؤمنين بالله تعالى وبث بذور الفرقة بينهم، وكان من نتائج ذلك كله هذا الفكر الغريب الذي عرف فيما بعد بـ«الإسرائيليات» نسبة إلى الضلالات الفاسدة من بني إسرائيل - أي اليهود - الذين كثر دسهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله - صلى الله وبارك عليهم أجمعين -، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن الكريم.. وهذا هو (الهوى) الذي عبر عنه بـ « الرأي» فيما نسب من أقوال إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم وإلى عدد من صحابته وتابعيهم - عليهم رضوان الله أجمعين -.

كذلك فقد فات هؤلاء وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأي في فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور - (وهو ما نقل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين) - موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله تعالى، وهو ما عرف بمنهج «التفسير بالمأثور» أو «التفسير بالمنقول» فاتهم أن المقصود بالرأي هنا هو الهوى وليس الرأي المؤسس على قواعد صحيحة من حقائق الدين والعلم، خاصة أن التفسير بالمأثور لم يشمل القرآن الكريم كله، فالحكمة يعلمها الله - وقد تدرك طرفا منها اليوم - لم يقم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالتنصيص على المراد في كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفاوتون، وأن الثابت أنه -صلى الله عليه وسلم - قد صوب رأي جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» (3)، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلا على جواز الاجتهاد في التفسير في غير ما حدده رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فمما يروى عن الإمام علي كرم الله تعالى وجهه - حين سئل: هل خصكم رسول الله- صلى الله عليه وسلم - بشيء؟ انه قال: «ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل في كتابه» (4) مما يؤكد أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك بقرره الحق - تبارك وتعالى - في قوله وهو أحكم القائلين: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» (ص:29).

وهذه الآية الكريمة - وكثير غيرها من الآيات القريبة في المعنى - أمر صريح من الله - تبارك وتعالى - بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها.

والقرآن الكريم ينعى على أولئك الذين لا يتدبرونه، ولا يستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول: «أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ». وقوله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا».

وقد ساق الإمام الغزالي - رحمه الله - الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأي، أي: بالاجتهاد، ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالي لكل إنسان أن يستنبط من القرآن الكريم بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة في استخدام تلك الرخصة قد افرزت نتاجا لم يكن كله مستساغا مقبولا لدى العلماء مطابقا لمقاصد الآيات القرآنية الكريمة في الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية - إما عن عمد واضح أوعن جهل فاضح - إلى مالا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن أصحابه والتابعين لهم وعن المنطق اللغوي وأساليب العرب في الأداء - حقيقة ومجازا -، وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم، مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول في القرآن بالرأي، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات المعارف المكتسبة في حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك في مناهج محددة منها: «المنهج اللغوي» الذي يهتم بدلالة الألفاظ وطرائق التعبير وأساليبه والدراسات النحوية المختلفة، «المنهج البياني» الذي يحرص على بيان مواطن الجمال في أسلوب القرآن الكريم ودراسة الحس اللغوي في كلماته، و«المنهج الفقهي» الذي يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج في منهج واحد عرف باسم «المنهج الموسوعي» أو «المنهج الجمعي»، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة في الموضوع الواحد في كل سور القرآن الكريم، وتفسير واستنباط دلالاتها استنادا إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضا، وقد عرف ذلك باسم «المنهج الموضوعي في التفسير».

مبررات المضيقين

قلل المنهج العلمي في التفسير مرفوضا من بعض المجتهدين، وذلك لأسباب كثيرة منها:

1- أن الإسرائيليات كانت قد نفذت اول ما نفذت إلى التراث الإسلامي عن طريق محاولة أعداد من السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس مما جاء في سفر التكوين من العهد القديم، وهذا خطأ كبير لأن الله تعالى قد شاء أن يوكل الناس في أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر.. ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتقل تلك المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في مجال العلوم البحتة والتطبيقية وذلك في تكامل يعرف التضاد.

ومن هنا أيضا لم يقم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالتنصيص على المراد من الآيات الكونية في أحاديثه الشريفة التي تناول بها شرح القرآن الكريم، ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دوما إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما أسبابه؟ وغير ذلك من أسرار الوجود فقد تجمع لدى البشر في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل والواقع بالخيال والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصا على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين المحرف في مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية في اول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وامثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، وبعد دخول امم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- إلى دين الله، وبعد وصول هذا التراث إلى عدد من علماء المسلمين وقيامهم على ترجمته ونقده والإضافة إليه حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فاخطأوا في ذلك ؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم ؛ ولأن هذا التراث كان الغلبة في أيدي اليهود، وهم الذين اشتهروا بتزييف الحقائق، وتزوير التاريخ، وبخداع غيرهم من البشر والذين يسمونهم بأسم « الاغيار»أو الأممين. وقد اشتهر اليهود ايضا بالتآمر والكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، كما تآمروا على رسالات انبياء الله موسى وداود وعيسى - عليهم السلام - من قبل وأن النقل للمعارف التي كانت متاحة في زمانهم من اللغات الأخرى إلى العربية قد تم بواسطة من أسلم ومن لم يسلم منهم على الرغم من تحذير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولاتكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه »([5]).

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات إلى كتب التاريخ والتفسير بقوله : «والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية : في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ وهم بادية مثلهم لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين اخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها....

2 - أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات : بمعنى أنه هو كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وبارك عليه وعليهم أجمعين - وتعهد الله تعالى بحفظه فحفظ ؛ فعلى ذلك لابد من تأكيد الحقيقة أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات - على كثرتها - جاءت في الغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

3 - أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائدا بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم، وانطلاقا من هذا الفهم فإنه لايجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز ؛ لأنه لا يجوز تفسير الثابت بالمتغير.

4 - أن القرآن الكريم هو بيان من الله تعالى، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز - في ظنهم - رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة ؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

5 - أن العلوم التجريبية تصاغ في أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب ولا تؤمن بالله، وأن كثير من المشتغلين بالعلوم الكونية لهم مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كتابه و وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ وبالبعث والنشور والحساب، وبالحياة الخالدة في الدار الآخرة، إما في الجنة أبدا وإما في النار أبدا.

6 - أن بعض معطيات العلوم التجريبية قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة نظرا لصياغتها من منطلقات مادية بحتة منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها، وأن التفسير العلمي للقرآن الكريم على أساس من هذه المعطيات قد يدفع ببعض المتحمسين إلى التأويل المتكلف الذي لا نحتاج إليه في فهم دلالة النص القرآني.

7 - أن عددا من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحتمله، في تعسف واضح وتكلف مفتعل ذلك بلى أعناق الكلمات والآيات وتحميلها من المعاني ما لا تحتمله.

ما تعرض له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى والتعذيب

العصبية القبلية كان لها دور في توجيه الأحداث والتعامل مع الأفراد حتى مع اختلاف العقيدة ■ العزائم التي تتقهر الصعاب والإيمان بأن كل مصاب في سبيل الله هين أهم صفات الرعيل الأول عند استقبال المحن

تحمل الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرواسي الشامخات وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فقد أوذي أبوبكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التراب، وضرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت، فقد روت عائشة رضي الله تعالى عنها، أنه لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبوبكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور، فقال: «يا أبابكر إنا قليل» فلم يزل أبوبكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبوبكر في الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبابكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبوبكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبوقحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبابكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه ام الخير: انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبابكر بسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف ابابكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبابكر صريعًا دنفًا، قدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله علي ألا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمهلتنا حتى إذا هدأت الرّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة، فقال أبوبكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله فأسلمت.

دروس وعبر وفوائد:

أ- حرص أبي بكر رضي الله عنه على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفار وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته، وقد تحمل الأذى العظيم حتى إن قومه كانوا لا يشكون في موته.

ب- مدى الحب الذي كان يكنه أبوبكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث إنه- وهو في تلك الحال الحرجة- يسأل عنه ويلح إلحاحا عجيبا في السؤال، ثم يحلف ألا يأكل ولا يشرب حتى يراه، كيف يتم ذلك وهو لا يستطيع النهوض بل المشي؟ ولكنه الحب في الله، والعزائم التي تقهر الصعاب، وكل مصاب في سبيل الله ومن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم هين وبسير.

ج- إن العصبية القبلية كان لها في ذلك الحين دور في توجيه الأحداث والتعامل مع الأفراد حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبي بكر تهدد بقتل عتبة إن مات أبو بكر.

د- الحس الأمني لأم جميل -رضي الله عنها- فقد برز في عدة تصرفات لعل من أهمها:

إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أم الخير أم جميل، عن مكان الرسول صلى الله عليه وسلم أنكرت أنها تعرف أبابكر ومحمد بن عبدالله، فهذا تصرف حذر سليم، إذ لم تكن أم الخير ساعتئذ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تود أن تعلم به أم الخير، وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان الرسول صلى الله عليه وسلم مخافة أن تكون عينا لقريش.

× استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

قام جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكر رضي الله عنه، وفي ذات الوقت لم تظهر ذلك لأم الخير إمعانا في السرية والكتمان، فاستغلت الموقف لصالحها قائلة: «إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت»، وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء، وحسن التصرف. فقولها: «إن كنت تحبين» وهي أمه وقولها: «إلى ابنك» ولم تقل لها: إلى أبي بكر. كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما ترضخ لهذا الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أم أبي بكر:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع أبي بكر رضي الله عنه الذي يظهر فيه ضعيفا دنفًا، فأعلنت بالصياح، وسبّت من قام بهذا الفعل بقولها: «إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، فلا شك في أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تكن شيئًا من الحب لأم جميل، وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكر رضي الله عنه.

الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة: لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها مازالت مشركة آنذاك، وبالتالي لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها أبوبكر رضي الله عنه عن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: «هذه أمك تسمع؟» فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم سالم صالح، وزيادة في الحيطة والحذر والتكتم لم تخبره بمكانه، إلا بعد أن سألها عنه قائلا: أين هو؟ فأجابته في دار الأرقم.

تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبوبكر رضي الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرّجل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرص كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلت أم جميل وأم الخير، بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات.

د- قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أم الخير أم أبي بكر بسبب رغبة الصديق في إدخال أمه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء لها، لما رأى من برها به، وقد كان رضي الله عنه حريصا على هداية الناس الآخرين فكيف بأقرب الناس إليه.

هـ- إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبابكر الصديق رضي الله عنه نظرا لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فيتبرى الصديق مدافعا عنه وفاديا إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفهم هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان.